

تمهيد:

إذا كان الهدف من الصورة . كما سبق وأن وضحت . هو تقديم رؤية الراوي غالبا ومن ورائه الكاتب، فإن أول ما ينشد في العمل الروائي هو تقديم صورة عن الفضاء الروائي باعتباره شرطا من شروط المحكي.

ولقد ارتبط لفظ "الفضاء" في لسان العرب بالمساحة المكانية، كما دل على المسافة والحيز فهو: "المكان الواسع من الأرض والفعل فضا يفضو فضوا (...) وفضا المكان وأفضى إذا اتسع. وأفضا فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأصله أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه.(...). والفضاء الساحة وما اتسع من الأرض(...)، و مكان فاض ومفض أي واسع، والمفضي المتسع.

ومن أهم ما جاء في موسوعة "لاروس" "Larousse" الفرنسية عن "الفضاء" أنه ما يحيط بنا، كافتقار الشساعة في غرفة لضيقها، للذين يحبون الرحابة في المكان، وهو جزء من مساحة مستغل من فرد أو شيء، وهو مسافة بين شيئين، كما يدل على مفهوم المساحة مثل فضاءات: طيران، فضاءات شاسعة، فضاءات قاحلة، فضاء حياة . كما أنه يطلق على ملكية مخصصة محددة لممارسة أنشطة معينة، فضاء قضائي، فضاء اقتصادي، فضاء جوي، فضاء حيوي.

ويطلق أيضا على مدة زمنية، كما يعبر عن مدة أو فاصل قد يكون كافيا أو غير كاف.مثل: رأيته ثلاث مرات في فضاء أسبوع، وهو مجال نحتاجه حتى لا نشعر بمضايقة الآخرين.

والفضاء هندسيا هو مجموعة نقاط منها نكوّن فضاء جامعا بثلاثة أبعاد (1).

(1) - ينظر: Grand dictionnaire encyclopédique , Larousse, librairie Larousse , mars ;1983, v4 ,p3887;3888.

الفضاء الروائي في النقد الأدبي:

إن اهتمام الرواية العربية المعاصرة "بالفضاء" كان ثمرة احتكاك بالثقافة الغربية، وخاصة الرواية الفرنسية الجديدة، وهذا الاحتكاك أدى لتجديد فنيات بناء الرواية العربية، فأبعدها عن التقليد وصارت شعريتها في شكلها. ومع هذا التجديد فقد بقى النقد الروائي العربي يقارب دراسة الفضاء الروائي مقارنة فيها خلط في الفهم وضبابية في التصور.

وقد سعى بعض الدارسين لإضاءة هذا الجانب المهم في نقدنا الأدبي ، بدراسة الإنتاج الروائي في مقالات أو في مؤلفات وطبق عليه مناهج نقدية مستوردة ومتعددة ،ومع هذا لم ينل الفضاء عناية الدارسين ، و يرجع ذلك في تقديري إلى أن الرواية العربية التقليدية ترى فيه مجرد إطار يستوعب الحوادث، فتشير إليه إشارة مفصلة في البداية، ثم لا تلبث أن تشير إليه إشارة عابرة كلما تطلب الأمر ذلك، وفي أحيان كثيرة تتجاهله فتتساق في سرد الحوادث .

وما هو جدير بالملاحظة أن تحديد مصطلح "الفضاء" ظل متلبسا فضفاضا في تصور النقد الأدبي العربي وفي النقد الفرنسي أيضا، بسبب شساعة المصطلح واختلاف وجهات النظر الفلسفية والإيديولوجية .

ففي "معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة" يشير "سعيد علوش" للفضاء بأنه يستعمل كمصطلح في "السيمائية" ، كموضوع تام يشتمل على عناصر غير مستمرة وانطلاقا من انتشارها، لهذا يعالج تكوّن موضوع الفضاء، من الوجهة الجغرافية "السيكوفيزيولوجية، و"السيويوثقافية". و يقابل موضوع "الفضاء" جزئيا "سيمائية" العالم الطبيعي، فباكتشاف الفضاء تتكوّن مباشرة هذه السيمائية، ويقتضي "الفضاء" النظر في سيميائية نشاط كل حواس الفاعل، كمنتج ومستهلك للفضاء، و تبحث "سيمائية الفضاء" التحولات الناشئة عن تدخل الإنسان في إنتاج علاقات جديدة.

وإضافة إلى مفهوم الفضائية والتحديد الفضائي، تستعمل السيميائية السردية والخطابية الفضاء الإدراكي⁽¹⁾.

ويعرف "منيب محمد البورمي" الفضاء الروائي بقوله: "أما في الاصطلاح، فالفضاء الروائي الذي تتمظهر فيه الشخصيات والأشياء ملتبسة بالأحداث تبعا لعوامل عدة تتصل بالرؤية الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب الروائي، وعلى هذا فالفضاء الروائي يتسع اصطلاحا ليحتوي أشياء متباينة ومتعددة لا حصر لها بدءا من المساحة الورقية التي يتحقق عبر بياضها جسد الكتابة إلى المكان والزمان، الأشياء، اللغة، الأحداث التي تقع تحت سلطة إدراكنا عبر أنماط السرد والتي تجسد عالم الرواية"⁽²⁾.

إن دراسة الفضاء الروائي تعتبر حديثة العهد إذ لم ترق بعد لتكون رؤية نظرية متكاملة يمكن التركيز عليها، واتخاذها كمعالم توجه نظرة الناقد، وتلبي أسئلته، لكنها تمثلت أساسا في اجتهادات باحثين ما فتئت تخطو بعزم وثقة نحو التأسيس. وفي هذا يقول "هنري متران H.mitterand":
"لا وجود لنظرية مشكلة من فضائية حكاية، ولكن هناك فقط مسار للبحث، كما توجد مسارات أخرى على هيئة نقط منقطعة"⁽³⁾.

وعليه فإن تجميع تلك الاجتهادات وتنسيقها قد يساعد على إقامة تصور لبناء هيكل متكامل عن الموضوع، وهو في الأساس مقارنة لتشكيل الفضاء الروائي.

(1) - ينظر: سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني و سوشا برس، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص164.

(2) - منيب محمد البورمي: الفضاء الروائي في الغربية "الإطار والدلالة" سلسلة دراسات تحليلية، دار النشر المغربية، ط1، 1984، ص21.

(3) - نقلا عن حميد لحداني: بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000، ص53.

تشكيل الفضاء الروائي:

لم يميز الدارسون بين الفضاء والمكان في السرد الروائي، إلا أن التمييز بينهما يقوم على أساس أن الفضاء يكون مشغولا بالزمان والمكان، وطبيعة علاقات الشخصية في فعلها وتفاعلها وما يمكن أن تسمه به من سماتها النفسية والذهنية في كل موقف.

إن الزمن الذي نحياه، لا يمكن إدراكه إدراكا حسيا أو ماديا، ولا يمكن القبض عليه إلا من خلال علاماته في المادة، سواء أكانت أجساما أو أمكنة، « فالصبي زمان. أي انه يعني ارتباطه العضوي بالزمان ابتداء من لحظة الصفر التي يولد فيها (...) والشيخ زمان، والكهل زمان، والشاب زمان (...)، فالزمان الذي نريده هو ذلك المتجسد في الكائنات والأشياء الدال عليها، المحدد لعمرها، الواصف لأحوالها»⁽¹⁾.

والزمن لا يمكن تخزينه؛ لأنه متواتر يتم استهلاكه لحظة إنتاجه، فتكتسب لذلك الذات الحية النامية خبرة عقلية ونفسية وحسية عبر زمن حياتها، وهذا النمو والتراكم للخبرات هو المظهر الوحيد المدرك لفعل الزمن، وهو متناوب الوجود، ولا علامة على وجود ما انقضى منه، إلا ما خزنته الذاكرة من صور مادية، فتعي ما أصاب الموضوع من تغيير باسترجاع تلك الصور الذاكرية الأولى عنه، فتدرك عندها الزمن .

والأدب فن متخيل، يقوم على توظيف الخبرة العقلية والنفسية والحسية بالاعتماد على الذاكرة، وعليه يمكن القول بأن الأدب فن زمني، يتولى فيه السرد التعبير عن خبرة ما. والذي يهمننا هنا هو الزمن الوجداني الذي يدرك به وجود الزمن، فالماضي لم يعد له وجود لانتهائه، والمستقبل لا وجود

(1) عبد المالك مرتاض: النص الأدبي من أين وإلى أين؟، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص84.

له لأنه لم يأت بعد. إن كل ما هو موجود هو لحظة الحاضر التي سرعان ما تتبدد فيطوبها الماضي؛ لأنه لا يمكن استمرار الزمن في خطه المتواصل وهو موجود فقط في الوعي الإنساني بذاته ووجوده ووجدانه. ولهذا أطلق "باختن" Bakhtine على الزمان والمكان، وفعل وعلاقات الشخصية وتفاعلها ، وما ينتج عن ذلك من علامات نفسية، ومواقف عقلية مصطلح "الكرونوتوب" chronotop " إذ يستحيل فصل المكان عن الزمان اللذين تشغلها الشخصية. يتماسك الزمان والمكان في الواقع وفي الفن الروائي فيعبران ظاهريا عن فضاء جريان الحادثة في المكان كفضاء ملموس ومدرك لإنجازه .ف" يستحيل تناول الزمان في دراسة تنصب على عمل سردي ،دون أن ينشأ عن ذلك مفهوم المكان في مظهر من مظاهره." (1)

والفضاء في السرد الروائي يقوم على الجدل الحي والمتواصل والمتواتر بين الماضي والحاضر؛ لأنه يختزل ويختزن القضايا الهامة المتفاعلة والفاعلة في وجدان السارد وفكره، وبذلك يتجسد المتخيل الزمني في علاقات مادية تستدعي أمكنة لها علامتها، وتستمدّها من قوة الواقع ، وبدونها لا يمكن فهم النص؛ لأننا لا ندرك فضائية الزمن إلا بقرائنه المكانية المادية التي تكشف لنا عن الأحوال النفسية والذهنية للشخصية الحالة في الفضاء، لأنها هي المستهدفة .

وعليه فالفضاء الروائي كإنجاز فني لا يوجد إلا باللغة، وبها يتجسد، فهو إذن فضاء لفظي. ويقر الناقد المغربي حسن بحراوي بأن نقاد الرواية وكتابها يرون بأن تمظهر الفضاء الروائي لا يكاد يخضع لقانون واحد ثابت متعارف عليه، ولذلك يركز على ما للمكان والشخصية من دور في تكوّن الفضاء الروائي، وما لهما من تأثير متبادل ، فكما أن الفضاء الروائي يكشف لنا عن الحياة

(1) - عبد المالك مرتاض : تحليل الخطاب السردية معالجة تفكيكية سيميائية مركبة ،ديوان المطبوعات الجامعية

اللاشعورية للشخصية التي تشغله، كذلك لا شيء في الفضاء يحمل دلالة بدون الشخصية التي تحل فيه . (1)

وبناء على ما تقدم، فإن الإشارة إلى الفضاء ستتضمن الأمكنة التي جرت فيها الحوادث، وهذه الأمكنة ارتبطت بأزمنة معينة سواء كانت ماضية تسترجعها الذاكرة فتستحضر المكان، أو حاضرة ترتبط بزمان ومكان تدفق السرد وامتداده الصاعد، أو أزمنة مستشرفة يتوقع السرد حدوثها في أمكنة معينة .

فالفضاء يلف في إيهابه جميع الأمكنة، وحوادث الرواية تستدعي المكان وتفترض تدفقها فيه وهذا ما يطلق عليه اسم فضاء الرواية "والمكان بهذا المعنى هو مكّون الفضاء" (2).

وكما سبق، فإن مقارنة الفضاء الروائي في النقد الأدبي الغربي أو العربي ما زالت متعثرة بسبب اختلاف الفهم، وتعدد وجهات النظر التي تقاربه جعلت دراسة الفضاء لا تزال قيد التأسيس لذلك أردت لهذا البحث أن يعتمد التصورات المكرسة أكاديميا للفضاء، فتناول وجهات النظر المقارنة للفضاء الروائي؛ لتكون في النهاية صورة متكاملة له وهذا ما سأبسطه في فصول الباب الأول (3).

(1) - ينظر :حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي ،المركز الثقافي العربي بيروت ، الدار البيضاء ، ط1،1990،ص27،36،44

(2) . حميد لحداني : : بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي مرجع سابق،ص63.

(3) - من الدراسات من حصرته في تصور، ومنها من قدمت له تصويين، ومنها من أدرجته في ثلاثة تصورات، ومنها من تخطى ذلك إلى أربعة، ينظر : حميد لحداني : المرجع نفسه ،ص60،56،55،54،53.